

المدينة والسلطة في الرواية الجزائرية

د. الهادي بوذيب

جامعة بجاية

Abstract

The relationship between power and urban space constitutes in its emergence a thinking and a political spatiality, by defining novelistic fictions of multiple uses. The narrative fiction covers a representation aiming at boosting both the esthetic and narrative effects of the urban space which articulates the events of narrative discourse

Key words: urban space, representation, esthetic effects, power.

1- إشكالية مفهوم السلطة: إنّ تعريف السلطة وخصائصها المفهومية والوظيفية يتعدد بحسب السياق المعرفي الذي تشغله السلطة باعتبارها تصورا علائقيا، أي عبارة عن مجموعة من العلاقات والتفاعلات بين القوى التي تتشكل ضمن الحيز الذي تشغله. فالسلطة من ناحية تحديد تعريفها لا يمكن فهمها انطلاقا مما هو مشاع عليها أنها هي "القوة" وطرائق فرضها بين الأطراف التي تحتكم إليها. "فالسؤال" ما السلطة؟ أو ما مصدرها أو أصلها؟ قد لا يكون في محله، بل ينبغي بالأحرى أن نتساءل عن الكيفية التي تتحقق بها أو كيف تمارس نفسها وتظهر إلى الفعل؟ وتظهر ممارسة السلطة للعيان كعلاقة بين قوتين، وهي علاقة سجلال وصراع وتدافع أو تأثير وتأثر⁽¹⁾.

وفي هذا الإطار يولي ميشال فوكو أهمية لعلاقات السلطة، وأنظمة خطاباتها، وتحليلها من الداخل، والكشف عن المعرفة المكونة لها. ويركز في تحليله الإبستمولوجي للسلطة على كيفية أداء نسقها، وليس شكلها، ومصدر مفهومها. وفي تعريف آخر، يعرف غرامشي السلطة بأنها نظام يقوم على الإكراه والإقناع، ترتكز عليه الطبقة الحاكمة، من أجل السيطرة والهيمنة لتعزيز حضورها،

والمحافظة على مصالحها الاقتصادية والسياسية الأيديولوجية، (تُربط فكرة غرامشي حول الهيمنة بين القبول الذاتي لدى الجماهير وبين العمل على تكريس السلطة من جانب طبقة صغيرة، عبر عملية الإقناع والتعاون مع مؤسسة الحكم. ويتحقق هذا القبول بفعل الهالة والمكانة التي تمتلكها طبقة مركزية مهيمنة تعمل باستمرار على تشكيل استراتيجياتها السياسية والاقتصادية لترسيخ فكرة القبول لدى المجتمع الذي سيتحول، وجوبا إلى الثورة، إذا غابت هذه الاستراتيجيات. وتتضمن الهيمنة التحكم الذي يتحقق عبر الوعي بحالات الاهتياج التخريبية التي غالبا ما تكون حاضرة في المجتمعات الخاضعة للهيمنة)⁽²⁾.

السلطة حسب غرامشي ليست مقولة محايدة، بل هي قوة منحازة لطرف على حساب طرف آخر، يمكن معاينتها عبر مقولات خطاباتها، وما تخفيه من مصالح متناقضة، وتعمل السلطة على ترسيخ مفهومها الطبقي والاجتماعي والسياسي والثقافي والتاريخي، انطلاقا من تشكيل اللغة تحمي قوتها وتواجدها، واللغة عامل مهم في بسط نفوذها، وعن طريق اللغة تُحرر الأفكار والاستراتيجيات التي تريدها السلطة؛ (ويلعب فرض نمط من اللغة، وإنجاز الكتابة الأدبية والتاريخية عبرها، دورا هاما في إنشاء أنظمة ومؤسسات تركزس أيديولوجيا الطبقة المسيطرة وترسخها)⁽³⁾.

وتنتج اللغة مقولات السلطة وأنواعها، وتشعب دلالاتها، حيث نجد تسميات متعددة للسلطة السياسية والدينية والاجتماعية والتاريخية والثقافية والاقتصادية، فلكل سلطة لغتها الخاصة، وهذا ما يقتضي ولادة معرفة وعلوم تشتغل عليها، كخطاب العلوم الإنسانية واللغوية والعلوم الاقتصادية والسياسية، ودوافع هذه العلوم في الأساس صراع الإنسان مع السلطة، بكل أشكالها وإفرازاتها؛ فالسلطة هي شكل وعلاقات وقوى متضادة ينتج، عنها حالات العنف والإكراه والتحرير والتضييق والرقابة والتدمير، و(تشدد "آرندت" في محاولاتها لتقديم تعريف للسلطة على تنوع حقول ممارسة السلطة (السياسية، التربوية والعائلية) وعلى بعد الاعتراف الكامل في العلاقة. فالسلطة المتميزة في الوقت نفسه عن الإكراه بالقوة وعن الإقناع

بالحجج الذي ينطوي ضمنا على علاقة بين متساويين، هي سلطة لا تستند، إذن لا إلى سلطان رئيس ولا إلى حجة مشتركة. تنطوي علاقة السلطة على تفاوت مميز، إذ إنها لا تقوم على المساواة ولا على التراتبية بالمعنى الدقيق للعلاقة أمر/ طاعة⁴.

وأفعال السلطة والمفردات المكونة لها، تدفع الإنسان لمعرفتها علميا، أو النضال من أجل كسبها والحصول عليها، فالسلطة قوة وجاذبية خفية، فهي تعني إثبات الهوية، وتجسيد المشروع والحلم والاحتمال المتوقع، فدلالات القوة التي ارتبطت بها، حوّلت العالم والتاريخ، ونقلت الإنسانية من شكل إلى آخر.

والسلطة خطاب مزدوج مأساوي واحتفالي، وفي بنيتها يتولد صراع الحياة والموت، إنها السلطة: إرادة القوة والمعرفة، حسب النص والتصور المنتشوي، حيث يتشكل الفهم ونقيضه حولها.

وكل محاولة تعريف للسلطة يعني بالضرورة تبني موقفا منها، وانحيازاً لمضمون وتصور عنها، حيث (كانت السلطة نقطة إحالة قسرية في فهم ما يحرك الناس، وكيف يقفون من بعضهم، وما الذي يسيطرون عليه وما الذي يسيطر عليهم، وما الذي يمكن أن يخبئه المستقبل للمجتمعات الإنسانية. وحديث السلطة والبحث عن السلطة يردم على نحو فريد الهوية بين الرأي الأكاديمي والرأي الشعبي حول الطريقة التي يعمل بها العالم)⁵. وهنا تختلط المعرفة بالإيديولوجيا، ولا يمكن فصل السلطة عن السياقات التي أنتجتها، في ضبط دلالتها ووظائفها، وأشكال تحركها بين المعرفة والمصلحة: العنصرين الرئيسيين في تكوين صيرورتها السياسية والاجتماعية.

1.1 - آليات اشتغال السلطة: تشتغل السلطة وفق آليات خاصة بها، حيث تتبين

طريقة أدائها وقوة حضورها، والسلطة دائما تعبر عن القوة والهيمنة، ولتكريس منطقتها تعتمد على آليات وظيفية هي:

أ - آلية القمع: القمع مكون رئيس في بنية خطاب السلطة، وقد يكون قمعا يأخذ الطابع المادي والرمزي. والقمع من الآليات التي توظفها السلطة وشبكاتها الإنتاجية لفرض الرقابة والعقاب، تجاه المكونات الخطابية المضادة لها.

وترتبط آلية القمع بالسلطة من حيث المفهوم والتعريف والتأثير، و(عندما نعرف تأثيرات السلطة من خلال مصطلح القمع، فإننا نقدم لأنفسنا تصورا قانونيا محضا لهذه السلطة نفسها، إننا بذلك نجعل السلطة لقانون يقول: لا، كان من اللازم على الأخص الإشارة إلى القدرة على المنع)⁽⁶⁾.

وعلى الرغم من سلبية التصور لقمع السلطة لمخالفها خطابها، فإن تخلي السلطة عن آلية القمع يعرضها للمحو والاندثار؛ فلا يمكن تصور مقول السلطة، وتاريخية مفهومها، إلا في ظل وظيفتها القمعية.

وتفكيك السلطة بالمفهوم الفلسفي والاجتماعي والتاريخي والسياسي، لا يتم إلا من خلال تهديم آلية القمع كمنتج لبناء السلطة.

ب. آلية الإقصاء: تتجلى السلطة من خلال آلية الإقصاء، وعبره تحضر السلطة كقوة فعل وتجسيد لخطابها المقترح، ضمن شبكة العلاقات المنتجة من طرف السلطة، على صعيد المقولات الاجتماعية والسياسية والتاريخية. (إنّ السلطة تعمل في الحقيقة بواسطة ثلاثة رموز أو عناصر: القانون، العنف والشمولية. إنّ السلطة هي الوجه الآخر للمجتمع. إنها القوة ضد الذين لا سلاح لهم ومعرفة الجماعة ضد المعرفة الخاصة والمشروعية ضد الرغبات الفردية)⁷.

وحتى تحقق السلطة مضامينها، تستعمل السلطة آلية الإقصاء، لفرض وجودها ومخططها الذي فرضته مسبقا، والاستدلال بالإقصاء هو من صميم خطاب السلطة أمام منافسيها، سواء أكانوا افتراضيين أم موجودين.

وآلية الإقصاء التي تركز عليه السلطة، تستغله في إطار البنية التي تتحرك فيها، ومقاصد آلية الإقصاء عند السلطة هي تأكيد مشروعيتها من جهة، والانتصار النهائي لمخططها من جهة أخرى.

ج. آلية السيطرة: تهدف السلطة، أيّا كان مضمونها، إلى سيطرة أيديولوجيتها وهيمنتها، وبدون آلية السيطرة تفقد هويتها، ولهذا تتشبث السلطة بسيطرتها المادية أو

الرمزية، وتمارس مقاومة عنيفة تجاه خصومها، حيث تعمل على تفكيكهم وهزمهم وتجريدهم من أي قوة.

وتُعرّف السلطة على أنها مجموعة علاقات مهيمنة، وقوة مؤثرة في المجال الذي تحتكره، ومن ثم، توظف آلية السيطرة لترسيخ حضورها، وإبراز معالم قوتها ودلالات هيمنتها.

2 - 2 . السلطة والسرد: تبرز السلطة في علاقاتها بالسرد من خلال قوة اللغة المسرودة، والسلطة هنا هي في الأساس سلطة اللغة والنظام الذي تشكله، في إطار استراتيجية السرد، ونوع السرد الذي تقرره العملية السردية، والقيم المرتبطة به، وهو الذي يبين أية سلطة سردية ستهيمن على المجال السردى المراد قراءته، ودرجة تقبله بين السارد والمسروود له.

وتظهر سلطة أي سرد ضمن العلاقات السردية، والمميز السردى (المكان أو الشخصية أو الزمان) هو الذي سيعرض نفسه كقوة سلطة سردية.

2 - 3 . السلطة والمدينة: لا يمكن تصور السلطة خارج إطار هيمنتها على المدينة، سواء كفضاء سياسي، أو اجتماعي، أو اقتصادي، أو ثقافي، فعلاقة السلطة بالمدينة هي علاقة مركبة ومتلبسة بقوة القانون، والخطاب الأيديولوجي، والتوجيه، والتخطيط لوضع الاستراتيجيات والمشاريع التنموية، ويفترض أن (تتميز مفاهيم المدينة "polis" كما هو معروف ببعض السيمات الأساسية: امتياز الكلام، وهو "الأداة السياسية" بامتياز، ووجود فضاء عام يتسم بحضور فاعل، وانتشار الكتابة كأداة نقل لثقافة مشتركة ولاسيما نموذج المساواة أمام القانون)⁸.

والسلطة بحكم قوتها وهيمنتها على الفضاء العمومي، توجه الرأي العام، وتفرض عليه قيودا وضوابطاً عبر مؤسساتها الأيديولوجية؛ كالأسرة والمدرسة والإعلام... الخ، وتعمل السلطة على التحكم في مواطنيها بطرق متعددة، والمهم عندها أن تظل دائماً مهيمنة بآلياتها المتعارف عليها.

ولمعرفة علاقة السلطة بالمدينة، تقترح علينا رواية (ذاكرة الماء) لكتبتها (واسيني الأعرج) شكل هذه العلاقة من حيث تيماتنا، ودلالات تعبيراتها السردية، وللوصول إلى هذه العلاقة بين السلطة والمدينة والفضاء الذي يجمع أو يتمفصل بينهما، اخترنا مجموعة مقاطع سردية، تبين من خلالها أنواع السلطة كفضاء مهيم على المدينة من جهة، ودلالة هذا الفضاء من جهة أخرى.

2 - 4 - السُلطة السِّيَاسِيَّة: تحضر السلطة السياسية في السرد على شكل

خطاب إخباري، ومن خلال هذا الخطاب نتعرف على هويتها وملامح صورتها.

أ - سرد الخبر والإعلان: إنّ الملاحظ في رواية (ذاكرة الماء) أنها اشتغلت على مجموعة من القصصات الصحفية، ضمن النظام السرد العام للرواية، بحيث هيمنت الأخبار الصحفية بشكل لافت للنظر، مما يعطي لنا تماثل بين الخطاب الإعلامي والخطاب السردية، وكلاهما له خصوصياته، فالخطاب الإعلامي حوّلته الرواية إلى مادة حكاية تستقي منها مدلولات سياسية واجتماعية وثقافية. (إنّ هذه الظاهرة تجعل القارئ لا يميز النص الصحفي من الأدبي انطلاقاً من توزيعه البصري، بل من خلال تلك الإشارات اللغوية التي يعلن من خلالها الراوي عن جنس النص قبل إيرادها).⁹

والقصصات الصحفية المدرجة داخل الرواية تميزت بطابعها الأفقي عكس المتعارف عن المقالات الصحفية أنها تأتي بشكل عمودي، بالإضافة إلى ذلك وضعها في الرواية داخل مستطيلات، مع ذكر عناوين الجرائد دون ذكر للسنة الكاملة، إذ يعند إلى حذف الرقم من التاريخ.

تعلن السلطة مشاريعها انطلاقاً من الخطابات والشعارات والإعلانات والمراسيم المنظمة لها، وإعلان السلطة عن نفسها يجعلها في ظاهره تبدو كأنها حاملة إصلاح، واهتمام بالشأن العام

ابتداء من الأسبوع القادم، سيشرع في تطبيق النظام الأسبوعي الجديد. وعليه سيصير يوماً الخميس والجمعة، هما نهاية الأسبوع، بدلا من يوم السبت والأحد. تم

هذا التغيير بالاتفاق بين مختلف الوزارات والمجلس الإسلامي الأعلى. جريدة الشعب (...)197 (10).

وسرد الإعلان عن هذا المرسوم التنفيذي في تغيير النظام الأسبوعي، يعلن في صحتها الرسمية - جريدة الشعب- عن السلطة؛ تقرر نيابة عن الشعب وتحدث باسمه، وهذا الشعب مجرد كلمات تنشر، فإن دلالات الإخبار في هذا المرسوم، خبر ملزم تنفذه الأجهزة التابعة لها.

وإذا تأملنا جيدا في مضمون المرسوم الإلزامي، فإنه يكشف لنا عن نوايا السلطة في إعادة صياغة تصورها، عن كفاءات التحكم في البنية الزمنية الجديدة، ومحو آثار البنية الزمنية القديمة (السبت والأحد).

والسلطة تعلن عن مشروعها الجديد، فيما يتعلق بمسألة الهوية الدينية، ففيما تقترب الخميس والجمعة من البنية الزمنية الإسلامية، فيوما السبت والأحد يحيلان إلى البنية الزمنية المسيحية.

وهذا الإعلان ينم عن سرٍ موجهٍ من طرف سارد السلطة، في طريقة وشكل تصورها للمرجعية الدينية والحضارية، وهذا الإعلان يكشف عن السياق الزمني الذي جاءت فيه السلطة السياسية الجديدة، وشعاراتها التصحيحية لمضمون الثورة، وهذا التصحيح يأتي إعلانه وخبره، كما نشرت في جريدتها الدعائية:

19 جوان. التصحيح الثوري يضع حدا للشعبوية. جريدة الشعب (...)196 (11).

تتلاعب السلطة عن طريق الإعلانات والأخبار بالكلمات والعقول، فهي تهدف إلى قولبة المفاهيم التي تريدها؛ فالانقلاب أصبح تصحيحا ثوريا. ودلالة هذا التصحيح، كما تزعم السلطة، يُقصد منه تبرير الخطاب الانقلابي، وكسب الشرعية الثورية. كما يبدو أن الخبر الذي تعلنه السلطة، والذي يدعو إلى وضع حد للانحراف الثوري، وتطهيره من الشعبوية، ما هو إلا تأسيس لوصاية جديدة، وانحراف نحو الشمولية.

2 . سرد الهيمنة: من بين خصائص مكونات السلطة، الهيمنة على العلاقات والفضاءات والأجساد، التي هي أحد أدواتها الرئيسية في تكوينها، فبدون هيمنة لا وجود للسلطة. ويبرز السرد الهيمنة في مجموعة من الكلمات والجمل السردية التي تحمل في باطنها دلالات الهيمنة.

وفي كثير من الأحيان، تظهر السلطة بشاعتها تجاه فضاء المدينة، كما يصوره المقطع السردى التالي: (من غير المعقول أن تباد معالم المدينة بهذا الشكل الهيجي وبهذه السرعة، وسادة النهي والأمر لا يعلمون؟ المدينة بدأت تزحف نحو الانقراض ليحل محلها ريف بدون عقل ولا تاريخ ولا ذاكرة، سوى الجفاف والرمل، ثم الرمل. ثم الرمل وحده الذي حول ساحات الشهداء والشوارع إلى ممرات لبيع سلع التهريب المقنن الآتية من كل أطراف الدنيا، والكاوكاو والسجائر المهربة، والسلع الرخيصة والمسروقات)^(1 2).

يمثل المقطع وصفا ضمنيا لمدينة هيمنت عليها صور البشاعة والخراب والتدمير، نتيجة إهمال السلطة، فجاء الوصف الجارف مقصودا في تعريضها للسلطة وكشف مسؤوليتها في نشر البشاعة.

تنتقل السلطة من بشاعة هيمنتها على الفضاء العمومي، إلى "الفرد" والإنسان، فالسلطة المهيمنة لا تترك مجالا للفرد "المتكلم" للتعبير عن رأيه، فهي بطبيعتها القمعية ونزعته الشمولية ترى الفرد مجرد رقم في سجلاتها الإدارية، وقد أثار المقطع وصف السلطة في تعاملها مع "يوسف" بأبشع الأوصاف، لأنه عبّر عن صوته النقدي، تجاه سلوكياتها القمعية؛ فالسلطة لا تؤمن بمن يخالفها الرأي، بل تعمل على ترهيب معارضيه، وتدجين أجسادهم، وقولبتهم وفق الشكل الذي تريده.

ولا تعترف السلطة بمن يخالفها في الرأي، وعدم اعترافها دليل على مدى ادراكها أن من يخالفها هو في جوهره سلطة مضادة، يعني أنها قمعية بامتياز، فاستعمالها للوسائل البشعة، هدفه هو المحافظة على شكلها وهيبتها وتماسكها.

وللمحافظة على شكلها، تعمل السلطة على إعادة إنتاج شكلها، عن طريق الخطابات والأغاني المجددة لها، فهي تسعى للحضور والهيمنة على كل شيء.

ب - **سرد القتل والاعتقال:** هناك إشارات سردية مباشرة، فيما يخص القتل والاعتقالات التي تمارسها السلطة، ويبين السرد بشكل واضح من يقف وراء هذه الاعتقالات، والملفت للانتباه أن لغة السرد لا تستعمل الاستعارات والإيحاءات في ذكر قضايا القتل والموت، (كل هذه الفوضى، والحكومة ما تزال في حماقاتها الأولى. أخبار الموت تملأ الدنيا، وهي تحاول مصادرتها بحجة إعاقة التحقيقات.

- يحققون في ماذا؟ القاتل معروف ويصرح بجرائمه علانية، والمقتول معروف. تعرفين ماذا ينقص هذه البلاد. رجال حقيقيون. رجال من عمق هذه الطينة، بدم جديد لا يدخلون في حساب البقالين عندما يتعلق الأمر بوطن يموت يوميا آلاف المرات، وآيل إلى الزوال بهدوء وسكينة.

- قلت لك، شاطرون فقط في متابعة مدراء الجرائد عن التجاوزات التي لا يعلنون عنها. ويطلقون سراح القتلة والمجرمين. شيء في هذه البلاد يمشي بشكل مقلوب.

- حتى العدو الذي شردنا من بيوتنا لا نعرفه، ويعرفنا جيدا. ولكن وجه يظل مغطى عن آخره، لا بد أن تكون هناك مافيا قادرة على تنظيم ذلك بشكل دقيق، وهي التي تمتلك قوائم الذين يجب قتلهم وتعرف قيمتهم.

- مافيا قتلت رئيسا أمام ثلاثين مليون مشاهد، ومع ذلك لم تجد شاهدا واحدا ليؤكد الجريمة. وصمت بعدها على قتله وكأن شيئا لم يكن، ثم اغتالت وزيرا مفكرا، ودفن لينتهي أمره في المساء نفسه. ثم اغتالت رئيس حكومة أمام الديموقراطية مسافة كبيرة⁽¹³⁾.

فهذه السلطة وريثة الاستبداد السياسي، في القتل والتشريد ونفي الآخر ومحوه، بطرق مافيوية وفاشية، بحيث (لم تعد هناك من قضية سوى القضية الأقدم ألا وهي

قضية الحرية إزاء الاستبداد، تلك القضية التي تشكّل في حقيقة الأمر وجود السياسة ذاته منذ بداية تاريخنا⁽¹⁴⁾.

والسلطة في المقطع لا تختلف عن سلطات الاستبداد التي ظهرت في التاريخ القديم والحديث، فهي - السلطة - نموذج مكرر لنماذج سابقة، تلك التي تشكلت في سياق التاريخ (النازية، الفاشية)، والتي أدت إلى هلاك ودمار إنساني، ما زالت آثاره عالقة إلى حد الآن.

وإذا رجعنا إلى المقطع، في تناوله قضية الموت والاغتيالات التي لحقت بشخصيات مهمة (الرئيس، وزير مفكر، رئيس حكومة)، فالسارد في ذكره لهذه الاغتيالات ترك شكوكا حول من يقف وراء هذه الاغتيالات، وبالتالي هل مصدر هذه الشكوك هي أجهزة خفية داخل السلطة ذاتها أو أطراف أخرى لها مصالح من وراء هذه الاغتيالات.

والمباشرة في السرد لا تعني بالضرورة الوضوح في الرؤية، لأن سرد الموت مهما كان شكله، يكون له الوقع الوجودي والدرامي على حياتنا، والكتابة عن الموت في السرد تأخذ وجهة استثنائية؛ (ربما كان ذلك وهما. ربما كانت اللغة ذاتها وهما ولكن من قال أن بقية القيم التي نتوازن من خلالها نعطي بها لحياتنا معنى من المعاني ليست وهما بدورها؟ ما معنى الحب؟ الكراهية؟ النضال؟ الخلود؟ المقاومة؟ الكتابة؟ العدالة؟ الشيء المؤكد في مغامرة الإنسان هو الموت⁽¹⁵⁾.

أردنا أن نبين أن الموت في هذا المقطع، قد اتخذ شكلين مختلفين مقارنة بالمقطع السابق:

الشكل الأول: الموت السياسي.

الشكل الثاني: الموت الوجودي الذي عبّر عنه بتساؤلات فلسفية.

والمستخلص من حضور الموت وأشكاله في السرد، سواء أكان سياسيا أم وجوديا، يغلب عليه طابع عدم وضوح الرؤية، والشكلان السابقان يتكرران في كثير من المقاطع السردية التي تتمفصل بين الوضوح والغموض؛ (لقد تم التعرف على قاتل

الشاعر والفنان يوسف، وهو القاتل الثاني بعد الحلاوي - الخضر. ويعتقد أنه عضو في فرق القتل التي تقوم بعمليات الاغتيالات أو بتمويلها. وسنوافيكم بتفاصيل أكثر في أخبار الثامنة⁽¹⁶⁾.

والخبر المسرود يدل على أن ظاهرة القتل أصبحت لازمة في فضاء المدينة التي تقتل مثقفها عن طريق رعاها والذين هم بدورهم ضحية للعبة السلطة وخصائصها وطبيعتها، إذن القتل هو توليد من ثايا هذه السلطة المشرفة على هذه المدينة. (وُجد الشاعر الفرنسي جون سيناك مذبوحا تحت طاولة الأكل، وبجانب رأسه، قنينة نبيذ (سيدي إبراهيم). ويعتقد أن الجريمة هي مجرد تصفيات خاصة، خصوصا وأنّ سيناك كان لواطيا... المجاهد الأسبوعي(197...)⁽¹⁷⁾.

لا يختلف خبر اغتيال الشاعر الفرنسي جون سيناك من حيث الشكل والمضمون السردى عن الخبر السابق، فهما يتشابهان في تأكيد المقتول. ويذهب بنا تأويل خبر الاغتيال والموت بعيدا نحو التاريخ السياسي والثوري للسلطة في الجزائر، حيث بدأت فكرة الاغتيالات المجهولة مع بروز الحركة الوطنية، التي عرفت صراعا داخليا دمويا بين أعضائها، فكان يتم حل الخلافات السياسية بالاغتيالات والتصفية الجسدية.

وتواصل في نفس النهج بعد الاستقلال، إلى أن انفجرت الأزمة الدموية في الفترة التسعينية، حيث أعيد الصراع التاريخي للقتل والاغتيالات في أبشع صوره.

2. 5 . السُّلْطَة واغتيال المدينة: أفرزت ممارسات سلطة ما بعد الاستقلال

أشكالا استبدادية أنتجت على ضوءها مدينة مشوهة لا هوية لها، إذ (أنّ الوجود الحقيقي للمدينة لا يعني بالضرورة أنها تعيش حالة مدنية فقد فقدت مدنيته في غياب الدولة المتمثلة في مؤسسات المجتمع المدني والسلطة لتتهض كيانا معاديا لذاته ولسكانه من خلال واقع العنف الذي يؤثته)¹⁸.

ونستشف من سياقات السرد الروائي الذي يسرد غياب المدينة وتفككها وهمجيتها واختلاطها بأشكال مختلفة، أنّ سلطة ما بعد الاستقلال، لا تملك أي

تصور حول المدينة كمشروع حضاري وجمالي، (لم تكن المدينة بهذه البشاعة، ولم يكن الزمن مخيفاً مثل الآن، لو أن المدينة الجديدة كانت وقتها قد بدأت تتنازل عن الكثير من بريقها وأشواقها للرجال الغامضين الذين حكموا رقبتها بعنف شديد. ولكن شيئاً عظيماً فيها يقاوم كل هذه الخسارات وهذا الخوف)⁽¹⁹⁾.

سرد المدينة مقرون بالخوف من سلطة مجهولة، أنهكت جمال هذه المدينة، على الرغم من المقاومة التي تبديها في وجه الحكام العفنين. وهناك مفارقة عجيبة لمن يحكم هذه المدينة؛ فهي تحتوي على أشواق الرجال الغامضين وشهوتهم للسلطة، من جهة، والسيطرة على فضاء المدينة من جهة أخرى، (لقد علمنا هنري لوفيفر بعمق أن المنظور السياسي لما يصبح محددًا، فلا شيء في الفضاء باستطاعته أو بإمكانه أن ينفلت من هيمنة السلطة وامتداداتها الرقابية، فالسلطة تريد أن تراقب الفضاء بأسره، وأن تحفظه منفصلاً أو متصلاً، ومتشذراً أو متجانساً مهما كانت الصعوبات والتحديات المطروحة. وذلك إلى درجة يصبح فيها "فضاء النظام" متخفياً في "نظام الفضاء" ويصبح هذا الأخير نظاماً لبث الخوف والرعب والترقب المريب)⁽²⁰⁾.

والسلطة لها تقاليد قديمة في تاريخ الرقابة على فضاء المدينة، التي عرفت سجلاً حافلاً من أشكال الحرب والتدمير، (فقد ولدت كمدينة في القرن السادس قبل الميلاد. تصوري هذه العراقة المذهلة؟ كانت علاقاتها واسعة من الجهة الأخرى من المتوسط، خصوصاً مع إيطاليا الجنوبية والمستعمرات الإغريقية. وبعد سقوط كرتاج في سنة 146 قبل الميلاد، دخلت مباشرة ضمن المملكة البربرية المستقلة عن موريتانيا، [...] وبعد تدمير أجزاء كبيرة منها أعيد بناؤها في القرن العاشر زمن الزييين، ليصبح اسمها فيما بعد جزائر بني مزغنة. مرة أخرى دُمّرت الكثير من أجزائها في مرحلة الإبادة الأولى عندما كان الأتراك يتحصنون بحيطانها، وعندما خاف الباشا غراب أحمد، من هجمات إسبانية جديدة، قام بتدمير باب عزون. وقام بمحوه نهائياً سنة 1573، ولم يترك إلا اسمه، وبنى في مكانه حيطاناً ثقيلة كالرصاص لا اسم لها ولا ذات، كرهها البحر وكرهته، حتى حي البحرية الذي كان مليئاً بالحياة والحركة، انتهى وتبعثر تحت التدمير المحلي، ودك المدافع التي لم تتوقف نيرانها. لم يدرك الأتراك أن كل بيت يسقط، وذاكرة تمحى، هو جزء من البحر ينشف ويتبخّر. حتى

الحيطان التي بنيت فيما بعد على الأنقاض، كانت تنسفها الاختلافات والصراعات. فالغاوون الأتراك، لم يغيروا من عاداتهم وتقاليدهم. اللبن والانتفاخ والساطور والقرصنة والتدرب وبيع الحيطان الواحد بعد الآخر. كانوا يبنون الأسوار العظيمة لدرء هجمات الأعداء، ويبيعون مفاتيح المدينة للذي يعطي أكثر⁽²¹⁾.

يحولنا المقطع إلى الفضاء التاريخي الذي شكل علاقة السلطة بالمدينة، فتاريخ النشأة بينهما غلب عليه الهدم والبناء وأجواء التوتر، والساد في هذا السياق، عمل على خلق تشابه بين الفضاء التاريخي الذي كوّن السلطة والمدينة، وابتكار النص السردي المشابه لهما.

فالكاتب السردية تعيد صياغة التشابه، وتختلف في الوقت نفسه في الخصائص اللغوية ف(هناك تشابه كبير بين فضاء النص وفضاء الواقع، لكن الكتابة لا تعيد إنتاج الظاهرة الواقعية، بل تعيد إنتاج الخصائص التي تميزها أكثر، والتي تعكس روحها الحية عن طريق اللغة، ومن ثم لا يكفي أن نبه إلى كون التشابه أو التماثل بين الكتابة والمرجع المادي، يتم بواسطة اللغة أو داخلها، بل ينبغي أن ننتبه إلى نوعية البنية اللغوية التي تتجزأ هذه المهمة المتعددة، مهمة النقل والتماثل والتحويل)⁽²²⁾.

إن سرد تاريخ المدينة ونشأتها تركز على أساليب طردية في البناء والهدم، من خلال تماهي السرد التاريخي والواقعي لموضوع السلطة والمدينة، بحيث تمّ ضمن عملية مركبة سردية اعتمدت على تفاعلات سلبية، تنشأ من خلالها رمزية ودلالة العنف المبطن داخل ثأيا السلطة في تعاطيها للفضاء المدني.

الهوامش:

- 1 - جبل دلوز: المعرفة والسلطة، مدخل لقراءة فوكو، تر: سالم يقوت، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب، 1987، ص: 78.
- 2 - شيلي واليا: إدوارد سعيد وكتابة التاريخ، تر: أحمد خريس وناصر أبو الهيجاء، أزمنة للنشر والتوزيع، ط1، عمان، الأردن، 2007، ص: 36.
- 3 - المرجع نفسه، ص ن.
- 4- ميريام ريفورت دالون: سلطان البدايات (بحث في السلطة). تر: سايد مطر، المنظمة العربية للترجمة، ط01، بيروت لبنان، 2012، ص51، 52.

- 5- مجموعة من المؤلفين: مفاتيح اصطلاحية جديدة (معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع)، تر: سعيد الغانمي، المنظمة العربية للترجمة، ط01، بيروت لبنان، 2010، ص 385.
- 6 - ميشال فوكو: نظام الخطاب، تر: محمد سبيلا، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 2007، ص: 84.
- 7- محمد الشيخ: المتقف والسلطة (دراسة في الفكر الفلسفي المعاصر)، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط01، بيروت لبنان، 1991، ص 122.
- 8- ميريام ريفورت دالون: سلطان البدايات (بحث في السلطة)، ص58.
- 9- كمال الرياحي: الكتابة الروائية عند واسيني الأعرج، منشورات كارم شريف، ط01، تونس، 2009، ص70.
- 10 - واسيني الأعرج: ذاكرة الماء، منشورات الفضاء الحر، ط1، الجزائر، 2001، ص: 14.
- 11 - واسيني الأعرج: ذاكرة الماء، ص: 37.
- 12 - واسيني الأعرج: ذاكرة الماء، ص: 55.
- 13- واسيني الأعرج: ذاكرة الماء، ص: 300، 301.
- 14 - حنة أرندت: في الثورة، تر: عطا عبد الوهاب، المنظمة العربية للترجمة، ط01، بيروت لبنان، 2008، ص: 13.
- 15- واسيني الأعرج: ذاكرة الماء، ص: 201.
- 16 - الرواية، ص: 47.
- 17 - الرواية، ص: 47.
- 18- كمال الرياحي: الكتابة الروائية عند واسيني الأعرج، ص176.
- 19- واسيني الأعرج: ذاكرة الماء، ص: 177.
- 20- حسن نجمي: شعريّة الفضاء، المتخيل في الرواية العربية، ص: 203.
- 21- واسيني الأعرج: ذاكرة الماء، ص: 175، 176.
- 22- حسن نجمي: شعريّة الفضاء، مرجع سابق، ص: 155 - 156.